

تمهيد

عندما عهد إلى لأول مرة بوضع أسئلة في علم الأخلاق لطلبة كلية أصول الدين خطر لي هذا الخاطر :

كيف نمتحن الطلاب في القواعد النظرية ، ولا نمتحنهم في الأخلاق العملية حتى نقف على مبلغ حيازتهم للفضيلة واستعمالها ؟؟؟

استولى على هذا الخاطر أحدث به نفسي ، وأعرضه على زملائي ، وأهبيء له أبنائي حتى أصبح عندي هو المبدأ الأساسي لنجاح الطالب . ذهبت بهذا الخاطر إلى شيخ الكلية فأجابني بأن هذا موجود بالفعل في خانة السلوك . . نعم هناك « خانة » مطبوعة في أوراق الطالب بهذا الاسم غير أني — على الأقل — من يوم أن طلبت العلم حتى الساعة لم أسمع عن طالب واحد نجح في العلوم كلها ، أو بعضها ، وسقط في السلوك . فقال : وكيف نمتحنه ؟

أولا ترى أنه لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية إلا باتخاذ الرشاة ، واستعمال السعاية ، وتكثير عدد الرقباء ، والالتجاء إلى التجسس قبيح مضر . قلت : نعم . هذا أمر صعب ، ولكن الأصعب منه تعليم الطالب نظريا وإهماله عمليا . وأين ؟؟؟ في كلية دينية . على أن الخطوة الأولى في هذا السبيل أن توجد المعلم . وعلى كلِّ « فما لا يدرك كله لا يترك كله » . والطريق : « هو شهادة الأستاذ » .

وإذا كان هذا الاقتراح لم يلق قبولا من أولى الأمر في الكلية ، أو في الأزهر فلا أقل من أن أوجه طلاب الأخلاق إلى أن يكونوا بالفعل فضلاء ، ففي الشؤون العملية - كما يقول « أرسطو طاليس » ^(١) ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظريا بالقواعد ، بل هو تطبيقها ، ففينا يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي ، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها . فلو كانت الكتب والخطب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لا استحققت أن يطلبها كل الناس ، وأن تشتري بأعلى الأثمان ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ في هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة وفيا بعهدها .

وألف بام الأخلاق العملية ، أو ألف بام السلوك الحسن أن تعرف نفسك بنفسك ، ولست أقصد أن تعرف كنهها وحقيقتها وإلا لو عرفت النفس على حقيقتها لا انحل كل شيء في هذا الوجود . بل أقصد أن تعرف مواضع النقص فيها لتكملها ، أو أن تعرف حسناتها فتتميمها ، وسيئاتها فتتقلع عنها . فمعرفة النفس مبدأ كل علم وفضيلة ، ومعرفة النفس مفتاح معرفة الله والله هو الحق المبين .

ولهذا يدعو الدين ، ويدعوك العلم وتدعوك الفلسفة إلى أن تعرف نفسك . يقول الكتاب العزيز : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وفي الأثر : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وكانت آية «سقراط»

(١) فيلسوف يوناني مشهور ولد ببلاد مقدونيا سنة ٣٨٤ ق م . وتوفي في سنة ٣٢٢ وهو واضع علم المنطق .

التي يتغنى بها على الدوام هي تلك الحكمة المنقوشة على واجهة هيكل « ذاتي »
« بأتينا : » اعرف نفسك بنفسك . ومن هنا قيل : « إنه استنزل الفلسفة
من السماء إلى الأرض » . أى أن « سقراط »^(١) أول من وجه الفلسفة
من البحث فيما وراء الطبيعة إلى البحث في الإنسان . وعلى هذا يعد هذا
الفيلسوف مؤسس علم الأخلاق .

يجب أن نعرف كل الحقيقة عن أنفسنا فن لم يعرفها لا يكاد يستبين
ما فيه من المعاييب والضرائب الذميمة ، ومن لم يعرف نفسه لم يقلع عما فيه
من معاييب بل لا يشعر بها فضلا عن أن يستقبحها للأفلاح عنها .

ولكن ما هو الطريق إلى أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ؟

جالينوس — الفيلسوف اليوناني الشهير — كتب في هذا المعنى كتابا
جعل رسمه « في أن الأخيار ينتفعون بأعدائهم » فذكر فيه منافع صارت إليه
من أجل عدو كان له . وكتب أيضا « في تعرف الرجل عيوب نفسه »
مقالة ذكر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي جوامعها ، نقتطف منها ما يلي
نقلا عن رسائله الفلسفية التي جمعها وصححها مستر « كراوس »^(٢) قال :

« فينبغي أن يسند الرجل أمره في هذا — في تعرف عيوب نفسه — إلى
رجل عاقل كثير اللزوم له والسكون معه . ويسأله ويضرع إليه ويؤكد عليه
أن يخبره بكل ما يعرفه فيه من المعاييب ، ويُعلمه أن ذلك أحب الأشياء إليه
وأوقعها عنده ، ويسأله أن لا يستحييه في ذلك ولا يحامله ، ويُعلمه أنه متى

(١) ولد في أتيننا سنة ٤٧٠ ق م . من آب يحترف صناعة النماثيل وأم قابلة .

(٢) المؤلف رقم ٢٢ لسنة ١٩٣٩ مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة .

تساهل في شيء منه فقد أساء إليه وغشّه واستوجب منه اللائمة عليه . فإذا أخذ الرجل المشرف يخبره ويعلمه ما فيه وما ظهر وبان له منه لم يظهر له اغتاما ولا استخزاء ، بل يظهر له سروراً بما يستمع وتشوقاً إلى ما لم يستمع منه . فإن رآه في حال ما قد كتمه شيئاً استحياءً منه أو قصر في العبارة عن تقبيح ذلك أو حسنها لأمه على ذلك وأظهر له اغتاما به ، وأعلمه أنه لا يجب ذلك منه ، ولا يريد إلا التصريح وإعلامه ما يراه على وجهه . فإن وجده في حال أخرى قد زاد وأسرف في تقبيح شيء رآه منه وتهجينه لم يخفضه ذلك ، بل يحمده عليه ويظهر له بشراً وسروراً بما رآه منه . وينبغي أن يحدد سؤال هذا المشرف عليه حالا بعد حال . فإن الأخلاق والضرائب الرديئة قد تحدث بعد إن لم تكن . وينبغي أن يستخبر ويتحسس ما يقول فيه جيرانه ومعاملوه وإخوانه ، وبما إذا يدحونه وبما إذا يعيبونه ، فإن الرجل إذا سلك في هذا المعنى هذا المسلك لم يكمد يخفي عليه شيء من عيوبه وإن قل وخفي . فإن اتفق له ووقع عدوٌّ ومنازع يحب لإظهار مساويه ومعانيه لم يستدرك من قبله معرفة عيوبه ، بل يأخذ في سبيل الإقلاع عنها ، إن كان من لنفسه عند نفسه مقدار ، ومن يجب أن يكون خيراً فاضلاً .

هذا هو الطريق لأن تعرف نفسك .

أما طريق السيرة الفاضلة في رسمه الرازي أيضاً في قوله : « إن الإنسان إذا لزم العدل والعفة وأقل من مما حكة الناس ومجاذبتهم سلم منهم على الأمر الأكثر ، وإذا ضم إلى ذلك الإفضال عليهم والنصح والرحمة لهم أوتي منهم المحبة . وهاتان الخلتان هما ثمرتا السيرة الفاضلة » .

والإنسان ناحيتان : ناحية جسمانية . وأخرى معنوية . فالجسمانية هي هذه الصورة الظاهرة المنظورة ، أو هي هذا الجسم الطويل العريض الذى تعتريه الأمراض المختلفة فيموت ويستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

والناحية المعنوية هي الصورة الباطنية التى بها يتشكل الجسم ويحيا ، أو هي النفس بما لها من أوصاف وخصائص .

وسر حياة الإنسان لا يتركز فى تلك الصورة الظاهرة المنظورة ، وإلا لكان هناك من الحيوانات ما هو أفضل من الإنسان . فالفيل مثلاً أضخم منك جثة . والأرنب أسرع منك عدواً . والكلب أقوى منك شماً . وإنما سر الحياة يتركز فى هذه الصورة الباطنة المهيمنة على كل حركة يأتها أى جزء من أجزاء تلك المادة الظاهرة . ومن هنا يتفاوت الناس بين خَيْرٍ وشرٍّ . وعلى هذه التفرقة يعتمد الخلق فى المقام الأول .

ولسكل من هاتين الناحيتين — الجسمانية والمعنوية — دراسات تتصل بها . فعلماء « التشريح » وعلماء « وظائف الأعضاء » وعلماء « الكيمياء الحيوية » يختصون بالبحث فى تلك الناحية الجسمانية . كل من ناحية .

وعلماء النفس . والمنطق . والأخلاق وغيرهم ، يختصون بالبحث فى الصورة المعنوية . كل من ناحية : علم النفس يبحث فى الإنسان من ناحية ما هو عليه الآن . وعلم المنطق يبحث فى الإنسان من ناحية عصمة الذهن عن الخطأ فى التفكير . وعلم الأخلاق — وهو ما نحن بصددده — يبحث فى الإنسان من ناحية ما ينبغى أن يكون عليه . فما هو هذا العلم ؟